الأسس الفيزيولوجية والنفسية للعنف والعدوانية

علي أسعد وطفة

مجلة المعرفة

مجلة فكرية ثقافية محكمة

تصدر عن وزارة الثقافة في سوريا

العدد 399

كانون الأول/ ديسمبر 1996

(صص 53– 76)

الدراسات والبحوث

الأسس الفيزيولوجية والنفسية للعنف والعدوانية: هل يمكن للعنف الإنساني أن يفسر على نحو فيزيولوجي؟

د. علي وطفة

لابد لنا من الاعتراف، مهما يكن الموقف المتخذ من مسألة الغريزة، بأن بعض العمليات الفيزيولوجية قادرة على تفسير السلوك العدواني، ويمكنها في الوقت نفسه أن تعززه. ولانستطيع هنا أن نستعرض جميع المعطيات الفيزيولوجية التي تنوء بها مضامين الكتب

---

* د. علي وطفة: باحث من سورية، دكتوراة في علم النفس، رئيس قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة دمشق. من أعماله: «سوسيولوجيا التربية».

الضخمة، فالأدبيات العلمية التي تتناول مسألة العنف بالغة الاتساع والشمول، وهي تشمل فيضا هائلاً من النتائج الجراحية التي تأخذ اليوم صورة «موزاييكية» تفيض بالتداخل والتشابك.

تأثير الهرمونات الجنسية:

تتمايز النزعة الجنسية عن النزعة العدوانية وتتباين، ومع ذلك فهناك علاقات ترابط جوهرية بين الجانبين. إذ يشكل الصراع واحداً من المظاهر الأولى لمواسم السفاد والحب عند بعض الحيوانات، ومن هذا المنطلق فإن تنبيرجن(١٩٥٣) يعتقد بأن أكثرية الصراعات تأتي كنتائج لطبيعة قوامها إعادة الإنتاج. فالنضال والصراع يكون دائماً من أجل الحصول على شريك جنسي، أو من أجل المكان والأرض، أو من أجل السيطرة، ومن أجل حماية الصغار.

وفي المستوى الإنساني، يلاحظ، على سبيل المثال، أن المحاربين لايفوتون أبداً فرص الإشباع الجنسي؛ وهذا الأمر يحدونا إلى أن نبحث في تأثير الهرمونات الجنسية في درجة العدوانية عند الإنسان على نحو خاص.

لقد بينت التجارب العلمية التي أجريت على الدجاج أن الدجاج يصبح عدوانياً بدرجة عالية عندما يحقن بهرمونات التيستوسيترون (Testosteron) (هرمون جنسي تفرزه الخصية)، ولوحظ أيضاً أن هذا الهرمون الجنسي يصعد من درجة ميل الدجاج إلى الصراع والنقر والمقاتلة. وعلى خلاف ذلك تبين التجربة أيضاً أن إعطاء الطيور هرمونات الأوستروجين (Ostrogens) يجعلها أكثر انطوائية ويخفض لديها من درجة الميل إلى العنف.

وماتجدر الإشارة إليه بأهمية خاصة أن أثر الهرمون الجنسي ليس بسيطاً أو آنياً عابراً كما يبدو للوهلة الأولى، ففي التجارب السابقة تبين أن طيور الدجاج التي ارتفعت لديها درجة العدوانية تحت تأثير الحقن الهرمونية الجنسية يحتفظ بمستواه الجديد من العدوانية وذلك بعد التوقف عن إعطائه

الحقن الهرمونية. ومع ذلك يلاحظ، بصورة عامة، أن ردود الأفعال تتباين بتباين الأنواع والهرمونات وأوقات الحقن، والتدريبات السابقة والسياق العام الفيزيائي والاجتماعي.

لقد أسفرت هذه التجارب عن نتيجة هامة قوامها أن تأثير الهرمونات يكون فعالاً على نحو كبير عندما تتعرض لها الحيوانات في صغرها أي في بداية انطلاقها الحيوي. لقد بينت تجارب سيمور لوفين Seymour Levine(1) وتجارب أخرى أن الفئران التي حقنت بجرعات كبيرة من التوستوستيرون تميل إلى إظهار سلوك عدواني بدرجة أكبر كلما كانت أصغر. وبينت هذه التجارب أيضاً أن ذكور الفئران التي تعرضت لعملية الخصاء أثناء الولادة، تظهر أثناء المعارك سلوكاً يشبه السلوك الأنثوي إلى حد كبير، وبالتالي فإن الميل إلى القتال لاينمو عند هذه الذكور المخصية حتى ولو حقنت بالهرمونات المذكرة بعد مرحلة النضج. ويمكن الإشارة في هذا الصدد أن الخصاء المتأخر (أثناء الفطام على سبيل المثال) ليس له هذا التأثير الكبير في مستوى العدوانية. فهناك مرحلة حرجة وهامة للتأثير في السلوك عند الحيوانات.

وتنسحب الملاحظات السابقة على الثدييات. لقد أجريت مثل هذه التجارب على القردة الحوامل، حيث أعطيت جرعات هرمونية مذكرة عالية أثناء الحمل وفيما بعد مرحلة الرضع، وقد لوحظ على أثر ذلك أن المواليد الإناث الطبيعيات اللواتي لم تتعرض امهاتهن لجرعات هرمونية مذكرة أثناء الحمل. والجدير بالذكر أن هذا السلوك المذكر لايستمر حتى نهاية الدورة الحياتية للإناث اللواتي خضعن للتجربة المعنية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل تنسحب هذه النتائج على الحياة الإنسانية؟ تبين الملاحظات أن الفتيات اللواتي تعرضت امهاتهن لتأثير هرمونات ذكورية أثناء العلاج يظهرن سلوكاً ذا مواصفات ذكورية. وبناء

(1) Alain Liury: Les procedes mnemotchniqu

على هذه المعطيات يلخص الدكتور هامبورغ D.Hamburg الذي عني بهذه التجارب مع باحثين آخرين هذه النتائج بالعبارة التالية : «إذا أخذنا بعين الاعتبار قدرة الإنسان الهائلة على التعليم والتدريب فإن الاحتمال ضعيف جداً بأن يكون التعرض المبكر لخلايا المخ لتأثير الهرمونات الجنسية المذكرة قادراً على إيجاد أشكال معقدة ومحددة من السلوك العدواني عند الإنسان، وذلك على مستوى الحياة برمتها». وماهو أكثر مصداقية هو أن الهرمونات الذكورية تحدد دون أدنى شك، وبشكل مبكر توجهاً عاماً أو نزعة طبيعية تجعل الفرد يشعر بأنه مدفوع إلى ممارسة بعض أشكال السلوك العدواني، أو تجعله قادراً على اكتسابه بسهولة.

هذا وتبين التجربة الإنسانية منذ عهود طويلة أن النساء يصبحن وبسرعة أكثر ميلاً إلى الاكتئاب والغضب وذلك في الأيام التي تسبق الدورة الطمثية، وتشير دراسات عديدة أن عدد المريضات اللواتي يحتجن إلى علاج نفسي، وعدد الجانحات يزداد بشكل ملحوظ أثناء هذه الفترة الطمثية، ومن هذا المنطق حاول الدكتور هامبورغ ومساعدوه تحديد علاقات الترابط بين الدورة الطمثية عند المرأة وتقلبات المزاج، ومن أجل هذه الغاية، قام فريق الدكتور هامبورغ بإجراء دراسة واسعة على عينة بلغت ١١٠٠ زوجة من طالبات الجامعة، وقد بين نتائج هذه الدراسة أن ٥٢٪ من النساء المستجوبات يظهرن حالة توتر عالية جداً، وذلك أثناء مرحلة ما قبل الطمث وذلك لبعض الدورات الطمثية، (اشارت ٣٣٪ من هؤلاء النساء أن هذه الحالة كانت بالنسبة لآخر دورة طمثية). ومع تباين الإجابات فإن الباحثين يعتقدون بأنه يجب الاعتراف بوجود تغيرات هرمونية، تتوافق مع المتغيرات النفسية، وأن هذه التغيرات ترتبط بالوسط الاجتماعي الذي يحيط بالفرد ولاسيما ببعض المتغيرات مثل متغير الجنس (كأن يكون الفرد امرأة أو رجلاً)، ومتغير درجة المسؤوليات اليومية، وهذا يعني أنه لايوجد علاقات سببية جامدة بل تأثيرات دورية بين العوامل النفسية والفيزولوجية.

العدوانية وهرمون الأدرونالين Adrenaline

تبرز التجارب وجود علاقة جوهرية بين مستوى العدوانية وبعض الهرمونات الأخرى الهامة وهنا يجب أن نشير وبصورة أساسية إلى هرمون الأدرونالين (وهو هرمون تفرزه الغدة الكظرية) بوصفه واحداً من الهرمونات التي توجد في أصل العدوان والعنف. لقد بين كانون W.B can-non بأن إطلاق هذا الهرمون في الدم، وهي عملية تتم بتوسط الهيبوثلاموث المخي، يؤدي إلى يقظة فيزيولوجية، ويمهد لنشاط سلوكي عنيف. ومع ذلك يقرر كانون بأن الغضب يمكن أن يحدث حتى في غياب التحولات العضوية (على سبيل المثال عند القطط التي تعرضت لعملية استئصال العصب الودي السمبتاوي) وأن حقن الأدرونالين لايستجر بالضرورة هجوماً عند جميع الحيوانات.

وتبين الأبحاث التجريبية التي أجراها بياش Beach (١٩٤٨) غياب العلاقة السببية الوحيدة الاتجاه بين الإفرازات الهرمونية الداخلية والسلوك. ويبين بياش أن هرموناً مايمكنه أن يؤثر في اتجاهات متعددة ويؤكد في هذا السياق أن أي رد فعل سلوكي لايرتبط أبدا بإفراز هرموني وحيد.

ويعترف اليوم عدد من الباحثين بأهمية العوامل الفيزيولوجية في السلوك، وفي هذا السياق يعلن كل من شاشتير Schachter ولاتاني Latane (١٩٦٤) بأن وضعيات الكائنات التي تحقن بالأدرونالين تختلف وفقاً للسياق العام لوجودها. فالأفراد يصبحون مرحين في الأوساط المفرحة بينما يصبحون عدوانيين عندما يكون الوسط الخارجي مشحوناً وقاتماً. وفي إطار رؤية شمولية للأعمال التي كرست لدراسة الغدد الكظرية يستخلص كلوبير (Klopper) غياب علاقات الترابط البسيطة بين هرمون وآخر وبين السلوك العدواني، ويؤكد تفسيره هذا على أهمية الدور الخاص بشخصية الأفراد.

تأثير المراكز العصبية:

لايمكن لنا في واقع الأمر أن نناقش تأثير الغدد الصماء الداخلية دون الحديث عن البنى العصبية، وذلك لأن إثارة هذه البنى يؤدي إلى إفرازات هرمونية في الوقت نفسه تؤثر فيه هذه الهرمونات بدورها على نشاط المراكز العصبي، وذلك يشكل مايمكنه أن يطلق عليه الدورة الهرمونية (Neuro hormonal).

تبين التجارب الجارية في هذا الميدان أن تخريب بعض التشكيلات الدماغية يؤدي إلى ظهور حالات من الغضب والسلوك العدواني. فعندما أجريت عمليات جراحية في الفص الجبهي عند القرود التي توجد في جماعات لوحظ أن العلاقات الاجتماعية للجماعة تتأثر وتتعرض للإنحلال، فالقرود التي توجد في الدرك الأسفل من نظام الجماعة لم تعد تتجنب القرود صاحبة النفوذ وذلك بعد أن أجريت لها عملية جراحية في الفص الجبهي للدماغ، بل وعلى خلاف ذلك بدأت تهاجم الحيوانات الأعلى وبصورة موازية، ويشير ذلك أن بنية الجماعة تخسر استقرارها الأول تحت تأثير هذه العمليات (٩٤).

فالقطة التي تعرضت لعملية استئصال دماغي وخسرت جزءاً من الهيبوسلاموس (Hypothalamus) تظهر سلوكاً انفعالياً يوازي إلى حد كبير الغيظ الشديد. وقد استطاع عالم الأعصاب الشهير هيس W.R.Hess عام (١٩٢٨) أن يحصل على نتائج مشابهة على طريق التحريض الكهربائي لبعض مناطق الهيبوسلاموس عند القطط السلمية.

إنه لمن الصعب، والحق يقال، أن نحدد ماإذا كان هذا السلوك أو ذاك نتاج لحوادث مخبرية مصطنعة، أو أنه نتاج لتأثير واقع حقيقي خاص. ويضاف إلى ذلك، أنه لمن الصعب أن نميز بين الخوف والغضب في سياق حالات تجريبية، وذلك لأن هذين الانفعالين يتعايشان معا وبدرجة متدنية من التمايز فيما يخص بالمثيرات التي تجعل سلوك الكائن يتأرجح بين

الهروب المخيف إلى الهجوم العنيف؛ ومع ذلك يؤكد الباحثون أن بعض الاختلافات البسيطة في أماكن أو في درجة التحريض الكهربائي للدماغ يثير ردود أفعال مختلفة، وأن المستقبل سيشهد تقدماً جديداً في مستوى اكتشاف علاقات الترابط بين المناطق الدماغية وردود الأفعال السلوكية.

وتسمح التقنيات الحديثة اليوم في مجال التحريض الكهربائي للدماغ عن بعد لعلماء الفيزيولوجيا أن يتحولوا إلى علماء نفس فيزيولوجيين، ففي واقع الأمر لم يعد ضروريا عزل الحيوان عن سياق حياته من أجل إجراء التجربة إذ يمكن إجراء التجربة على بنيته العصبية بطريقة طبيعية واجتماعية.

وعلى الرغم من كل هذا التقدم، فإن الأبحاث لم تستطع، في واقع الأمر، أن تفسر السلوك العدواني على نحو كلي وذلك بالاستناد إلى الخريطة الطوبوغرافية للدماغ، فهناك فروق تظهر بين كائن وآخر في معطيات التجربة الواحدة. ومن جهة أخرى إذا كانت هذه التجارب تشير إلى وجود قابلية لردود فعل عدوانية عند الحيوانات، فإنها لم تستطع أن تبرهن أن العنف يمكنه أن يظهر عفوياً في سياق العضوية نفسها.

وفي النهاية، وهذا هام جداً، يعترف أفضل الاختصاصين في هذا المجال(J.P. Flynn & J. Delgado & p. Karli) بوجود تضارب في معطيات التجارب السابقة ووجود تداخل في شروط الوسط المحيط بهذه التجارب.

إن تحريض الهيبوثلاموس، على سبيل المثال، يثير حالات متعددة رهينة في مستوياتها بالعوامل والمتغيرات الأخرى، وفي هذا الخصوص كتب كارلي Karli يقول: «إن تحريض الهيبوثلاموس لايؤدي وبصورة أوتوماتيكية أو نموذجية إلى إثارة سلوك محدد، وفي الواقع لايشكل حضور الطعام أو الشريك الجنسي شرطاً ضرورياً لإحداث هذا السلوك أو ذاك تجريبياً فحسب، ولكن احتمال ظهور هذا السلوك مرهون وإلى حد كبير ببعض السمات الخاصة بالمثيرات الغائبة»، ولهذا فإن هذا الباحث يعطي

أهمية خاصة إلى نظام الشيفرة الدماغي وهو النظام الذي يتدخل في عملية تشكيل مغزاي المثير الخارجي أو الداخلي.

وتأخذ أعمال دولكادو Dolgado الاتجاه نفسه، ولابد من الإشارة في هذا السياق إلى أن هذا العالم الشهير وهو من جامعة يال Yale قد ساهم في تحديد المناطق الدماغية المسؤولة عن انطلاق الغضب أو كبته، لقد لاحظ هذا العالم، على سبيل المثال، أن العدوانية يمكن أن تختفي وقتياً عند القرود الآسيوية، وذلك عندما تتم معالجة الجزء الداخلي للنواة الدماغية بالتحريض وخلال هذه الفترة من التحريض، يمكن ملامسة وجه القرود دون أية خطورة، علماً بأنها عدوانية جداً في الأحوال الطبيعية.

ومع ذلك فإن دولكادو Dolgado يؤكد دائماً على دور التعليم والسياق الاجتماعي، فالقطط التي تعرضت لعملية تحريض هيبوثلاموسيك جانبية لجعلها عدوانية تختار نقيضها، فالتحريض الدماغي يحدد الحالة الانفعالية العدوانية ولكن الأداء السلوكي يبقى المحور الأساسي للسمات الفردية عند الحيوان المحرض وخاصة قدرته على الاكتساب وخبراته السابقة، وينسحب ذلك على القرود، فمحلول الـ(S.E.C) يمكنه إثارة الحيوان، ولكن الشكل النهائي لعدوانيته مرهونة بعلاقاته الاجتماعية.

فالذكر يهاجم آخر يتحداه ولكنه مع ذلك يبتعد ماأمكن عن مهاجمة أنثاه، ويستخلص دولكادو قائلاً: يبدو أن التحريض الدماغي يؤدي إلى تشويش انفعالي ويؤدي إلى إحداث تغيرات في تفسير الوسط (. . .) فالتحريض الكهربائي لايحدد هدف النزعة العدوانية، وهو بالتالي لايوجه مراحل السلوك العدواني فكل منها يرتبط بتاريخ الكائن المحرض دماغياً، كما يرتبط بقدرته على التكيف المباشر مع التغيرات الظرفية المحيطة به.

ولكن كيف نبتدي هذه التجربة عند الإنسان؟ فالهرمونات (S.E.C) يمكنها أن تؤدي إلى ارتفاع أو انخفاض الألم والقلق والغضب عند الإنسان، ومن أجل اختبار هذه المسألة يتم أحياناً اللجوء إلى إدخال سلك كهربائي

داخل المخ وذلك لمعالجة الاختلاجات الصرعية العنيفة، وفي إطار هذه التجارب أخضع دولكادو بعض مرضاه، الذين يعانون من اضطرابات عاطفية، لتأثير أجهزة تحريض محمولة، واستخلص في النهاية أن الواحد من هؤلاء المرضى يستطيع أن يخفض اندفاعاته العدوانية بفضل عملية التحريض الذاتي المتكرر للنواة اللوزية.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو بأي معيار يمكن للأحاسيس المستثارة عن طريق التحريض الكهربائي أن تتكامل مع الشخصية؟ ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال سنكتفي بالإشارة إلى آراء دولكادو حيث يقول: «تشكل اللغة والثقافة جانباً من العناصر الأساسية في بنية الشخصية، وبالتالي فإن إرسال الشحنة الكهربائية للدماغ يمكنها استثارة بعض الذكريات وإيقاظ العواطف وتنشيط النزعة إلى المحادثة، ولكن الكائنات المحرضة تسلك دائماً بوحي من الخلفيات المرجعية لتجاربهم».

فالعلاقات الدماغية تؤدي إلى تغير في ردود الفعل والكثافة العاطفية عند الإنسان أيضاً، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أهمية نتائج الحوادث الجانبية في الطريق وذلك يشكل صيغة حديثة لعملية الهدم الذاتي. ويمكن في هذا الصدد الإشارة إلى بعض النماذج الخاصة بمجالات الصراع أو داء النقطة.

لقد وصفت، ومنذ زمن طويل، المظاهر العدوانية عند المصابين بالصرع (فرط الانفعالية النزقية، الفظاظة وانفجارات الغضب) وفي هذا الخصوص يلاحظ أن نسبة عالية من الجانحين يعانون من فوضى كهربائية دماغية.

وفي هذا السياق يشير تاتيركا Taterka وكاتز Katz على سبيل المثال إلى أن ٧٣٪ من الأطفال الذين يعانون من خلل سلوكي يعانون من فوضى دماغية كهربائية. ومع ذلك فإن هذين الباحثين لايستطيعان مع ذلك تحديد العلاقات القائمة بين التشوش الكهربائي الدماغي ومختلف الاضطرابات

النفسية مثل (السلبية المطلقة، العدوانية، فرط النشاط) ويضاف إلى ذلك، هنا كما في مكان آخر، أنه يجب البحث عن دلالة السببية واتجاهاتها، فهل يؤدي الاضطراب العضوي إلى جعل الكائن أكثر إثارة أم هل هي الإثارة المكتسبة نفسها (عن طريق العائلة أو الثقافة) التي تجعل من هذه المظاهر الجسدية أكثر أهمية وذلك بالقياس إلى شخص آخر ينحدر من وسط اجتماعي آخر. من المعروف، وفي اطار الممارسة الإكلينيكية، أنه لمن الصعب جداً تحديد الأولوية في إطار ظاهرة نفسية عصبية.

وفي هذا الخصوص كتب آجير اكيرا De Ajuriaguerra استناداً إلى سلسلة من التجارب التي أجراها على المصابين بالصرع والذين يعانون من أمراض نفسية أخرى يقول: «يوجد داخل هذه الحالات وعلى الأغلب مركب داخلي بالغ الأهمية ولكن تقنين هذا التنوع العدواني يمكن أن يفسر من خلال تنظيم الشخصية ومن خلال العوامل البيئية المحيطة»(٩٥).

وليس مستغرباً عبر هذه الصورة أن تكون العقاقير النفسية غير قادرة على إثارة نتائج واحدة. فالعقار (D.P.H) وهو تركيب يوظف في علاج الصراع والأمراض النفسية، يتنوع في تأثيره من فرد إلى آخر. لقد سجل الدكتور تيرنير الذي استخدم هذا العقار في معالجة مئات المرضى، أن هذا العقار لم يظهر أي تأثير عند ٣٪ من الحالات وأن ١٠٪ اظهروا تغيرات سلوكية غير قابلة للنقاش. وهذه النتائج تعزز الملاحظات التي تجري بشكل دوري حول تنوع تأثير الكحول: بعض الناس يشعر بالكآبة وبعضهم يشعر بالغبطة وبعضهم يشعر بالنفور بينما يشعر بعض آخر بالميل إلى العنف.

تأثير الوراثة Hérédité

تجري التأثيرات الوراثية، كما هو معروف، بواسطة الخلايا العضوية المعقدة الجينات (Les Genes) والتي تمارس تأثيرها على المستوى البيولوجي كما على المستوى الذهني والنفسي.

هذا ويتفق أكثر الاختصاصين (ومنهم كروك Grook على سبيل

المثال) مع ذلك على نفي تأثير التحولات الجينية في السلوك العدواني، وعلى خلاف ذلك يمكن للفعل العدواني أن يولد تحت تأثير نماذج من التحريض تجعله يبدو وكأنه سمة وراثية. هناك بعض العوامل الفطرية التي توجه السلوك العدواني: رد الفعل والانفعالية والقوى الفيزيائية والنشاط الهرموني الخ... ومع ذلك يلاحظ أن بعض السلالات العائدة إلى نوع واحد يمكنها أن تظهر تبايناً كبيراً في مستوى سلوكها العدواني.

وتطرح هذه المسألة وفق صيغ مماثلة على المستوى الإنساني، فالكروموزمات XX التي تحدد الجنس الأنثوي، والكروموزمات XY التي تحدد الجنس المذكر تسهم وبشكل غير مباشر في تحديد درجة العدوانية وفي نسب الافرازات الهرمونية وذلك عبر تأثيرها على القوة الفيزيائية للجسد.

ويشار هنا غالباً إلى فساد في هذه الكروموزمات التي تأخذ صيغة XYY وذلك لتفسير السلوك الإجرامي، وتشير الأبحاث الحديثة التي أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية، إلى وجود مثل هذه الحالة عند فرد واحد من أصل ٥٥٠، ويلاحظ في هذا الخصوص أن القضاة يأخذون أهمية هذا الجانب البيولوجي بعين الاعتبار، ومع ذلك لايمكن دائماً ملاحظة وجود علاقة مباشرة بين تزامن هذه الظاهرة والجريمة، وعلى خلاف ذلك تشير دراسات عديدة إلى أهمية العامل الفيزيائي عند حملة هذا التشوه الكروموزمي، وبالتالي فإن هذه البنية يمكن أن تؤثر وبطرق مختلفة وبصورة مباشرة على السلوك.

فالناس يختلفون فيما بينهم، وذلك من فرد إلى آخر وذلك يفسر إلى حد كبير بعض إمكانيات التباينات السلوكية، ومع ذلك فإن الأفراد أنفسهم لاينتجون السلوك نفسه، كما سنرى لاحقاً فإن الاختلافات السلوكية تعود بين الناس وبشكل أساسي إلى العامل الثقافي.

تنوع أواليت العدوان:

تحذر نتائج التجارب الحديثة لعلم النفس الفيزيولوجي من التوظيف

البسيط لمفهوم غريزة العدوان حتى في مستوى الحيوانات الدنيا. لقد ذكرنا منذ قليل بأن مفهوم الغريزة يطرح بحد ذاته مشكلة وفي هذا الخصوص يمكن الإشارة إلى السيد ريشارد G.Richard الذي يعلن في سياق محاولته لإعادة النظر في صورة استخدام هذا المفهوم قائلاً: بدأ أكثر الباحثين بالتوقف عن استخدام مفهوم الغريزة بعيداً عن مضامينه التي اكتسبها في سياق تاريخيته أو بعيداً عن قيمته الحقيقية التي تمتلك طاقة تفسيرية بالنسبة للسلوك» فمهما يكن الأمر فإنه يمكن لنا اليوم أن نرفض جزئياً مفهوم غريزة عدوان قادرة على التأثير بصورة أحادية أو ككتلة واحدة، حيث يتفق أغلب علماء الأخلاق وعلماء النفس الفيزيولوجي حول هذه النقطة، وهم مع ذلك يؤكدون على ضرورة تحديد التنوعات السلوكية في إطار دلالاتها البيولوجية. وعلى هذا الأساس يعلن كارلي Karli: أن الفيزيولوجي لايدرس الأسس الفيزيولوجية للعدوان بل يحلل الحالة الفيزيولوجية الأساسية التي تشكل منطق بعض النماذج السلوكية العدوانية المحددة، وبالتالي فإنه عندما يعالج معطياته حول مختلف النماذج العدوانية غالباً مايلاحظ أن حالات الإثارة المسؤولة تنطوي على بعض العمليات الخاصة».

ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى عالم الأعصاب الفيزيولوجي موير K.E.Moyer ١٩٧١ الذي استطاع من خلال تحليله للمثيرات أن يميز بين نماذج سبعة للعدوان منها: الخوف، والغضب الناجم عن الدفاع عن الأرض، والسلوك الطفولي، والصراع الذي يجري بين الذكور؛ واستطاع فيما بعد أن يحدد الأجهزة العضوية العصبية والهرمونية بالنسبة لكل نوع من هذه الأنواع السلوكية العدوانية.

العدوانية بين معطيات علم النفس وعلم الفيزيولوجيا:

تبين المادة التي عرضناها بصورة مختصرة أن عالم الفيزيولوجيا لايستطيع أن يصل بمفرده إلى تحليل مسألة العدوانية في أبعادها الداخلية، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن نتجاهل مع ذلك معطياته، ويلاحظ عادة في هذا

السياق أن المهنيين (ويضاف إليهم النظريين) في مجال العلوم الإنسانية غالباً مايتجاهلون معطيات العلوم الطبيعية، ويذكر في هذا الصدد بيوتوندجيك Buytendijk في مقدمة كتابه العملاق تمهيد في الفيزيولوجيا الانتربولوجية قائلاً: «يجب على عالم النفس في إطار ممارساته المهنية المتنوعة، كما يجب عليه أيضاً في إطار أبحاثه التجريبية الخاصة بالسلوك والحالات المعاشة أن يدرك جيداً وظائف الجسد وماهيته (مثل الأعصاب الحسية السمعية البصرية والنظام العصبي، وعملية الأيض، والهضم، والدورة الدموية، والتنفس والوظائف الهرمونية، وعمليات الضبط الذاتي)وذلك كله من أجل فهم الإمكانيات التي تجعل من الجسد حالة دينامية والتي تعطي الروح إمكانية الوجود الشخصي عبر الجسد.

فالاتجاه الفيزيولوجي يسعى إلى تحديد العلاقات المتتابعة ومايرافقها، فهو يشير على سبيل المثال إلى أن الظروف والمتغيرات تؤثر في طبيعة السلوك الإنساني وتزيد من احتمالات وجود النزعات الاعتدالية، ويشير هذا الاتجاه أيضاً إلى وجود تغيرات في الاندفاعات العاطفية وذلك عندما يتعرض الدماغ لتأثير المخدرات وإلى وجود توجهات سلوكية جديدة عند الكائن وهو في النهاية يحدد أدوات التأثير الفعالة.

فعلم الفيزيولوجيا يحدد لنا مايمكن للعضويةأن تقوم به على وجه الاحتمال، ومع ذلك فهو لايستطيع أن يحدد لنا مايمكن للفرد أن يقوم به على نحو فعلي في هذه الحالة أو تلك، فهو يعطي صورة عن جوهر السلوك ومنطلقه، ولكنه لايستطيع الإجابة بصورة قطعية عن مسألة السببية أو الدلالة الخفية للسلوك، فالحبال الصوتية واللغة وبعض المناطق الخاصة بالقشرة الدماغية الخ.. جميعها ضرورية من أجل التعبير الشفوي، ولكن ذلك كله لايمكنه أن يفسر لنا طبيعة حديث مايتفوه به المرء.

فحدوث سلسلة من الأفاعيل السلوكية يتطلب وبكل وضوح عضوية ما، وبنى وأنظمة تعمل على تنظيمها، ولكن جميع هذه الشروط لايمكنها

لوحدها أن تجعل السلوك حادثاً، فالفيزيولوجي يبحث في الشروط الفطرية الأولى للسلوك والتي تفسر مختلف نماذج السلوك العدواني ولكن من المؤكد اليوم بأن الأجهزة العضوية تمتلك مثل هذه الدورات العصبية التي يمكنها أن تتدخل بالضرورة وتحت تأثير عضوي داخلي، وبالتالي فإن أعمال عالم الفيزيولوجية حول البنى الفيزيولوجية الداخلية لاتسمح لنا بإدراك العلاقات الفعلية بين العضوية وعالم السلوك. وفي هذا السياق يمكن لعالم الفيزيولوجيا وعبر قرار منهجي، أن يضع هذه العلاقات بين قوسين وذلك من أجل أن يتقدم بصورة أفضل في مجال عمله الخاص.

وفي هذا الاتجاه يعلن عالم الأعصاب الفيزيولوجي كارلي P.Karli أن المحرضات الداخلية (أو الخارجية) تأخذ قيمة محركه وذلك في علاقاتها بالتجربة العضوية أو العلاقة مع اتجاه الدلالة التي تستقبلها.

فإذا كانت العمليات الفيزيولوجية عند الحيوانات هي التي تحرك السلوك فإن الصيغة السيكولوجية هي التي تحدد، وذلك في بعض الشروط، دلالة وأهمية الحالة الجسدية. ويشير كاتز في هذا السياق أن شهية الفئران والدجاج تنخفض عندما توجد هذه الحيوانات في وضعية قلق وتوتر، لابل يمكن أيضاً لهذه الشروط أن تجعل هذه الحيوانات تشعر بحالة جوع شديدة، ويوضح كاتز في مجال آخر أن هذه الحيوانات تشعر بالجوع لمجرد أن تبدأ حيوانات مماثلة بتناول الحب، فعندما توضع دجاجة شبعانة أمام أخرى جائعة فإن الأولى تبدأ بالحصول على الطعام وذلك عندما ترى الثانية تسرع في نقر الحب، وتأثير ذلك يتزايد إذا وضعت دجاجة واحدة شبعة مع ثلاث دجاجات جائعة، وعلى خلاف ذلك عندما نضع ثلاث دجاجات شبعة مع ثلاث دجاجات جائعة لايكفي لإثارة سلوك غذائي عند الدجاجات الشبعة.

أما فيما يتعلق بالإنسان فإن أحداً من الناس لايستطيع أن ينكر أبداً تأثير الحالات الانفعالية والعاطفية والطقوس والرموز في درجة شهيته، فالعلاقة بين الشروع بتناول الطعام والحاجات العضوية هي هنا أقل تحديداً،

فهذه الشهية ترتفع عند الحيوانات أو تنخفض نسبياً ولكن يجب أن نأخذ أهمية التربية والعادة عند الإنسان.

فانخفاض الشهية الذهني الذي يختلف عن المرض الذي يحدث بتأثير الغدة النخامية، يؤكد على أن التنبهات الداخلية والخارجية التي تشكل قوام الشهية لاتمتلك معنى واحداً أو دلالة واحدة.

فالشهية العادية يمكن أن توصف وكأنها حالة من الضغط المتموج المحدد جسدياً والذي يفسر بوصفه حاجة غذائية. ويمكن في هذا السياق الإشارة إلى الملاحظات الإكلينيكية لكل من سيدس Sidis وكودهيرت Goodheart والتي تشكل دليلاًعلى هذا التصور، وتجسد هذه الملاحظات حالة مريض فقد ذاكرته الخاصة باللغة والمخطط الجسدي إثر تعرضه لإصابة دماغية. لقد لوحظ أن هذا المريض عندما يترك من غير طعام فإنه يتعرض للإثارة ولكنه لايفهم هذه الإثارة والإنفعالات التي تشير إلى الجوع، وماحدث هو تدريب المريض على أن هذا الضغط الجسدي يمكنه أن يزول عندما يحصل على الطعام.

وبعيداً عن التصورات الساذجة التي ترى بأن الأحاسيس الجسدية ثانوية وبأنها تشكيلات نمطية تحددها النفس فإن العمليات العضوية تترك تأثيرها في السلوك، وبالتالي فإن تأثيرها لايتحدد بما نملكه عنها من معرفة، فالجسد كما يقول بيوتنديجيك (1958) هو حالة محفزة، وبالتالي فإن هذه الحالة تؤثر وبصورة لايركن إليها الشك في جميع أوجه النشاط والوجود، ولكن رغم ذلك فإن هذا التأثير يجري دائماً بالعلاقة مع الدلالة العامة (التي لايتم التفكير فيها) والتي ترتهن كلياً بالسياق العام الذي توجد فيه.